

وأنساب يرتفعُ بها أحياناً إلى آلهة السماء، وأحياناً إلى أعظم القديسين فضلاً عن المناقب والصفات التي لا شريكَ لها فيها من أجيال الأرض أجمعين. إذا سَوَّغَتْها ظواهرُ الأمةِ وساندتها القوةُ والثروة والكلمةُ الغالبةُ. ولكنَّ الغريبَ أن تشيعَ هذه الدعاوى بين أُممٍ، وأشدُّ غروراً ممَّ تكونُ في غيرها! كأنها هي عوض عما فقدته الأمةُ من دواعي الفخر الصحيح، وعزاً ما تصبو إليه من العزة والكرامة، قوميةٌ تجرى على وتيرة الأناثية الفردية في الظهور أو الضمور. كان المصريون يرون أن الم صبي هو الإنسان الكامل، ثم تنوّل الدرجات بعده إلى السادسة، وهي درجة اليوناني عندهم في تاريخهم القديم، ثم جاءت العصور الأخيرة فإذا كلُّ أمةٍ من أمم الحضارة الحديثة تزعمُ زعمها، الأمم الأخريات... وأصبحَ الفخرُ بين الأجناسِ علماً...! نعم أصبحَ الفخر القديم الذي نشأ من الخرافات القديمة علماً جديداً له حرمة العلوم عليك وعلٌ وعلينا أن نُقرَّ بها مؤمنين. ولكن العلم الجديد لم يكن إلا صيغةً لتلك الخرافة العتيقة ولم تكن له من نتيجة إلا تلك التي كان الأوروبيون يزعمونها قبل أن يكون لهم علمٌ، تكون للأجناسِ دراسة... وهي أنهم خيرٌ من في الوجود، وهم أصلح الناس للدوام فيه... وأما الأمم الأخرى فلا نصيبَ لها إلا نصيب النبع الذي لن يجوز له أن يطمع في المساواة الآن ولا في أي زمنٍ من الأزمان. والعلم الحديث صادقٌ شريفٌ فسواء قَسَمْنَا الأممَ إلى آريةٍ وساميةٍ، أو بيضاء ذات ألوانٍ فالنتيجة واحدةٌ في جميع هذه التقسيمات، أن الأوروبيين هم أفضلُ من غبٍّ وحَضٍّ، وأنهم هم السادةُ الأعْلون الذين بينهم وبين المسودين وتفاوتٌ لا تداركُ له ما بقيت الأرضُ أرضاً، لقد فعلها النمساويُّ “فريدريك هرتز” وقال ما قال وأجره على الذي خلّفه!! قال لعلماء الأجناس المتعصبين: إنكم مخطئون جدّ مخطئين، وإن أصلاً من أصول الأمم المختلفة لا يخلو من أوشابٍ كثيرةٍ يدخلُ فيها شرقيونٌ وغربيونٌ، وإنه ما من محمّدةٍ تدعى لأوروبا إلا وللأجناس وما من مذمةٍ تدعى على الأجناس الأخرى إلا وفي أوروبا قديمها وحديثها وأيد كلَّ قولٍ ببرهان... ولا يريد “هرتز” أن يقف في الإنصاف عند شعب من الشعوب، لأنّه يرى أن الفواصل بين أيّ شعبين في العالم ليست من البعد والحيلولة بحيث تستعصى على